الدين تجربةً في إنتاج الحقيقة

جون غروندان

ترجمة: حنان درقاوي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

© 2015
جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

الدين تجربةً في إنتاج الحقيقة

جون غروندان

ترجمة: حنان درقاوي*

* باحثة ومترجمة من المغرب.

يبدو من قبيل الاستفزاز أن نتحدث اليوم عن حقيقة دينيّة. لنطرح اليوم سؤال ما هو الدين على شاب ما، شاب لم يتلقّ أيّ تربية أو أدلجة دينيّة. إذا كان هذا الشاب يُتابع الأخبار قليلاً فإنّنا سنتجاوز ربطه للدين بإرهاب الجهاديين أو الفضائح الجنسية للرهبان التي تستفحل في الكنيسة الكاثوليكية. بعضهم الآخر سيفكر في الحروب الدينية، في محاكم التفتيش وفي أنظمة أخلاقية قمعية، أو حتى في نظرة أسطورية للعالم تجاوزها العلم الحديث وحقائقه. في معظم الحالات سيفهم الدين على أنّه العكاز أو الأفيون الذي يحتاجه الذين يرفضون تقبّل حقيقة الموت والوجود الآيل للزوال. هذا الدين هو دين المؤمنين العاديين الذين تَتقَبَّلهم مجتمعاتنا العلمانية بشرط ألّا يُؤْذوا أحداً، عكس ما يفعله الجهاديون أو القساوسة البيدوفيل. أن نتحدث عن الحقيقة في هاتين الحالتين فلن يكون حديثنا ذا معنًى، لأنّنا لن نجد إلا معتقدات غير مبرهن عليها، علاوة على كونها خطيرةً.

نحن هنا ننطلق من تَمَثُّل نبيل للحقيقة، أي باعتبارها ما يمكن التأكد منه بطرق العلوم الحقة. إنّه من الصحيح التأكيد أنّ الأرض تدور وأنّ عكس هذا خاطئ تماماً، كما أنّه من الخطأ افتراض أنّ العالم خُلق في ستة أيام. يمكننا أن نصدّق أنّ النبي أرميا قد سمع صوت ياهوا الإله، وأنّ النبي ذا الكفل رأى مدفع الله، أو أنّ المسيح بُعث بعد مماته، يمكننا أن نقول ذلك، لكنّها تظلّ أشياء لا يمكن التأكد منها بطريقة محايدة. لا يمكننا القول إنّ هذه حقائق. الشيء نفسه ينطبق على الإيمان بالله أو وجود الحياة بعد الموت. صحيح أنّ هذه المعتقدات شائعة، لكنّ الأمر لا يتعلق بحقائق يمكن التأكد منها بمعنى التحقق من صِدْقيتها في نظرنا بصفتنا معاصرين.

بأي معنًى مبرر يمكننا الحديث عن حقيقة كامنة في الأديان؟ نريد أن نبرهن أنّ ذلك ممكن بمعانٍ مختلفة. لا يتعلق الأمر بوضع الحقيقة العلمية، أي الحقيقة الموضوعية، موضع الشك، ولكنّ الأمر يتعلق بأن نرى إذا ما كانت التجربة الدينية بإمكانها أن توسع فهمنا للحقيقة وللبراهين التي تفترضها.

عن الحقيقة التي تتحدث عنها الأديان

يبدو من البدهي أن نقول هذا الأمر، لكنّ الواقع أنّ الأديان والنصوص المقدّسة تحدثت عن الحقيقة قبل أن توجد العلوم الحديثة والفلسفة التي ربطت الحقيقة بمساطر التأكد التجريبي. دون أن ندخل هنا في سجالات تأويلية صارمة، فإنّنا نقول إنّ التوراة اليهودية والعهد الجديد والقرآن تتحدث عن الوحي الذي تنشره على أنّه حقيقة تتماثل مع الله نفسه. في السورة الثانية من القرآن، الآية 29 نجد: "وهو بكل شيء

عليم"[1]. الله الذي يقول عنه القرآن إنّه الحق نفسه "ذلك بأنّ الله هو الحق" (السورة 22 آية 6) الله لم يقل إلا الحقيقة حين انكشف للنبي محمد عن طريق الملاك جبريل. لهذا يقول القرآن غالباً إنّ تلك الحقيقة منزلة إلينا حين انكشفت للرسول (السورة 2 آية 176). من وجهة نظر القرآن فإنّ الله أنزل التوراة والإنجيل علينا لكي يخبر بما مضى (السورة 3 آية 3،) الحق لا يأتي إلا من الله (سورة 3 آية 60)، لأنّه حسب ما يقول القرآن "الله يعلم وأنتم لا تعلمون" (السورة 2 آية 216). نحن نتلقى الحقيقة بكونها منزّلة ونحن نصدقها.

في العهد الجديد يقول عيسى إنّه هو نفسه الطريق، الحقيقة والحياة (إصحاح 14، 6) وهذه الفكرة أوحت كتاباً قوياً لميشيل هنري عن "الحقيقة في المسيحية"[2]، هذا المسيح نفسه قال لحواريه: "إذا بقيتم على كلمتي فإنّكم فعلاً حواريون، وستعرفون الحقيقة وهاته الحقيقة ستحرركم"[3] (إصحاح يوحنا 14، 6، 8، 31، 32). العهد الجديد يستعمل هنا كلمة أليثيا (alètheia)المعروفة عند الفلاسفة اليونان. بارمنيديس مثلاً كان يستعملها لكي يعبّر عن طريق الحقيقة التي كان يقدمها، مستلهماً بذلك الإرث الديني طريقًا توحي بها الآلهة[4]، بارمينيدس الشذرات (1، 29، 2، 4)، والإنجيل الإبراهيمي أو ما يسمّيه المسيحيون "العهد القديم" يستعمل من جهته كلمة أميث (aemeth) التي ترجمها الإغريق السبعينيون بلفظة أليثيا أي الحقيقة. هل هذه ترجمة جيدة؟ هل يغطي المصطلحان التجربة نفسها؟ القضية مازالت محل سجال[5]، ذلك أنّ كلمة أميث تشير إلى الصلابة والديمومة التي يمكننا أن نثق بها[6] (انظر ميكائيل ثيوبالد، مقال عن الحقيقة)، فالمصطلح بهذا الشكل ينطبق على أقوال وشخوص جديرين بالثقة[7]، يمكننا استعماله أيضاً لنحتفي بأفعال الله كما في الترانيم "أفعال يديه حقيقية وعادلة، كلّ تعاليمه صحيحة، مقامة إلى الأبد، إنّها ناشئة عن الاستقامة والحقيقة"[8] الترنيمة (111، 7، 8) حسب الترجمة الوحدوية، يمكننا أن نفكر أنّ هذا هو مفهوم الحقيقة التي يفترضها إنجيل يوحنا والقرآن نفسه حين يكشفان حقيقة أحسن من ذلك، وهي الحقيقة التي يمكننا تصديقها، والتي على أساسها نضبط حياتنا، ما الذي يعنيه مفهوم الحقيقة؟ إنّه السؤال الذي يطرحه

[1]- القرآن، ترجمة جاك بيرك، ألبان ميشال، باريس ص 29

[2]- ميشيل هنري، أنا هو الحق من أجل فلسفة للمسيحية، باريس لوسوي 1996

[3]- إنجيل يوحنا، إصحاح 14، 8، 32 مذكور تبعاً لترجمة أورشليم، باريس كورف 1973

[4]- أرمينيديس، شذرات.

[5]- عن استعمال أميث في العهد القديم، انظر كوش مقال "الحقيقة في التاريخ والحاضر".

[6]- انظر مقال ميكائيل ثيوبالد : الحقيقة ضمن القاموس النقدي للاهوت، باريس 1998 صفحة 1213 "الحقيقة في العبرية هي الشيء الصلب الذي يمكننا أن نستند إليه، من البدهي أنّ هذا صحيح بالنسبة إلى طريق الحقيقة التي يقترحها بارمينيدس، من هنا فإنّ التصور الإغريقي واليهودي للحقيقة ليسا مختلفين كما نعتقد".

[7]- المصدر نفسه.

[8]- ترانيم 11 1، 8، 7 مذكور، حسب الترجمة التوحيدية، باريس، سيرف 1978

بيلاطس البنطي (pilate) على المسيح. من الواضح أنّ الحقيقة هنا لا تشير فقط إلى الحقيقة الموضوعية لجملة معتمدة. فاعتبارها حقيقة منزلة يجعلها تتضمن ثلاثة أبعاد:

1 ـ هذه الحقيقة هي الاسم الآخر لله، لدرجة أنّنا هنا يمكننا الحديث عن الحقيقة بـ"ال" التعريف، الحقيقة في ذاتها.

2 ـ هذه الحقيقة هي بالتالي حقيقة نابعة من المذهب المستمد من الله، والذي أنزل حين كلّم الله عباده عن طريق رسله، ابنه أو أنبيائه. من البدهي أنّ الحقيقة، سواء كانت أليثيا أو أميث المستمدة بهذا الشكل من الإله، هي حقيقة صلبة وتستحق الثقة. يمكننا أن نقول إنّ هذه الحقيقة تتشابه مع ما سنسميه حقيقة المعارف أو الجمل المعتمدة، لكنّ الحقيقة التي تتحدث عنها النصوص المقدّسة يمكن استجلاؤها أيضاً في أعمال الرب، في مبعوثيه، وأيضاً في أقواله التي يمكننا أن نثق بها.

3 ـ هذه الحقيقة الموحاة هي كفيلة بتشريع حكمة في الحياة: تعاليم، وتوجيهات ومواقف وشهادات يمكن أن نضبط عليها وجودنا. لنقل بشكل آخر إنّها حقيقة تستطيع أن تدخل مجال التطبيق وتريد ذلك.

الدين، وتحديداً الوحي الذي يستند عليه، يشكل بذلك منبعاً للحقيقة حسب معانٍ ثلاثة أساسية، إنّه يكلمنا عن الله بوصفه حقيقة، يكشف لنا أقواله ورؤيته للعالم، وهي نظرة أكثر وثوقاً من كلّ ما يمكن للإنسان أن يحكي عن العالم والخلاص، يفعل ذلك وفي الآن نفسه يزودنا بحكمة حياتية، وأكثر من ذلك يعطينا فلسفة للحياة يمكن تطبيقها مباشرة. يمكننا أن نستند إلى تلك الفلسفة ونقود حياتنا وفقاً لتوجيهاتها. عن هذه الحقيقة تتحدث الأديان على اختلافها، حقيقة يمكن أن نسميها حقيقة الوحي. وعنها تتحدث الأديان مهما تكن الجذور الإنسانية لهذه النصوص، وهي جذور مقبولة على الأقل من طرف العلماء الجديين الذين يشتغلون على تلك النصوص، ما يهمّ هنا هو السعي إلى الحقيقة، حقيقة الدين المتعالية، حقيقة تتجاوز نظام الحقائق الإنسانية، وهي متسامية عليها، هذا الوعد بالحقيقة المتعالية هو الذي يفسّر كوننا مرتبطين بالأديان.

معنى التحقق في دراسة الأديان

هل الحقيقة التي نحن بصددها في الأديان يمكنها أن تكون موضوعاً للتحقق؟ لنقل نعم، لأنّ أيّ حقيقة لا يمكن التحقق منها تبقى رأياً. التحقق الإمبريقي من حقائق الأديان يتخذ ثلاثة أشكال: الأول واقعي محض، ونحن نضعه في المرتبة الأولى لأنّ عصرنا يوليه أهمية كبيرة، هذا الشكل يرتبط بالتاريخانية، ونقصد بذلك قابلية التحقق من الظواهر التي تتناولها الأديان أو نصوصها، هكذا يمكننا أن نتساءل هل

وجد نوح حقاً؟ هل سفر إشعياء (*isaïe*)كتبه مؤلف واحد؟ أو كم امرأة تزوج جون سميث مؤسس حركة المورمون(*mormonisme*) ؟ هذه الحقيقة التاريخية مطابقة للحقيقة الموضوعية، وتخضع لضروراتها في التحقق. الحقيقة الدينية متوافقة مع نمطين آخرين من التحقق يوسعان معنى كلمة التحقق. وهكذا بالإضافة إلى التحقق التاريخي يمكننا أن نتحقق في حدود معينة من مصداقية نبوءة ما، وإذا صدقت نقول إنّها حقيقية، التحقق يمكن أيضاً أن نوسعه إلى أعمال الذين يقدّمون أنفسهم على أنّهم أنبياء أو مؤمنون، وهي في هذا تبحث عن التوافق بين الكلام والفعل، لنتحدث عن الرسل المنتحلين الذين سيأتون إلينا مرتدين ثوب النعاج، والذين هم في الحقيقة ذئاب مفترسة، يقول عيسى: "يمكنكم التعرف عليهم من ثمارهم" 7، 16 "هل نقطف العنب والتين من الشوك؟" المصدر نفسه. (6، 43، 44)

بهذا الشكل يمكننا التأكد من ثمار الحقيقة الدينية تجريبياً. لا يتعلق الأمر هنا بتأكيد فرضية، كما هو الحال في العلم، ولكن يتعلق الأمر بالتأكد من صحة نبوءة بتحققها الفعلي وبالأفعال التي تصدر عنها. نمرّ هنا من حقيقة النبوءة إلى التجربة الدينية في حدّ ذاتها.

الحقيقة الخاصة بالتجربة الدينية

الدين يمثل تجربة إنتاج للحقيقة بالنسبة إلى الأشخاص الذين يؤمنون به. هل يمكن أن نحيط بهذه التجربة اعتماداً على فكرة الحقيقة الخاصة بالعلم؟ من البدهي أنّ حقيقة الاعتقاد والخلاص الذي يرجوه الدين لا يمكن أن نتحقق منهما بطريقة محايدة، وهذا لا يعني أنّ الاعتقاد وحكمة الحياة التي تنتج عنه لا يشكلان تجربة فريدة في إنتاج الحقيقة، وربما تكون نموذجية. قولنا بهذه التجربة الفريدة هو صدى لمشروع هانس جيورغ غادامير الذي أراد أن يبرر فلسفياً تجارب إنتاج للحقيقة تتجاوز المجال الخاضع لسيطرة المنهاج العلمي[9] (هانس غادامير، الحقيقة والمنهاج 1960 باريس). فكرة غادامير هي أنّ تصورنا عن الحقيقة يهيمن عليه نموذج العلوم الحقة، بمعنى ما أسميناه هنا بالحقيقة الموضوعية التي تزعم امتلاك الحقيقة بأكملها. حسب غادامير هذا يقود إلى جهل أوجه أخرى للحقيقة ليست أقلّ جوهرية في وجودنا ومعارفنا. غادامير يشير بالضبط إلى تجربة إنتاج الحقيقة التي يخلقها العمل الفني، وإلى الحقائق التي يمكن أن نستخلصها من التاريخ والعلوم الإنسانية بصفة عامة، وأيضاً إلى الحكمة العملية التي نمارسها في حياتنا اليومية، التي لا تستند إلى آخر اكتشافات العلم. هل يجوز أن نطبق على هذه الحقائق مفهوم الحقيقة الموضوعية إذا ما أردنا أن نفهم مساهمتها في المعرفة؟ هذا طبعاً ممكن باعتبار إمكانية اختبار هذه المعرفة موضوعياً. يمكننا على سبيل المثال أن نتساءل من هو بالضبط الشخص

[9]- هانس جورج غادامير، "الحقيقة والمنهاج"، 1960، باريس، لوسوي، ص 11

الممثل في لوحة الموناليزا؟ يمكننا أن نتأكد إن كان رامبرانت هو صاحب لوحة الرجل ذي القبعة الذهبية... إلخ. هذه الحقيقة الموضوعية ليست مجهولة في العلوم الإنسانية، وروح العلم الحديث تعترف لها بمكانة متصاعدة في أعمال الإنسانيين، لكنّ أطروحة غادامير هي أنّ الحقيقة التي تعلمنا إياها الأعمال الفنية وعلوم الفكر هي حقيقة من نوع آخر. لقد حاول جاهداً أن يبرهن على هذه الحقيقة بتقديم فكرة أنّ اللقاء مع عمل فني يشكل لا محالة تجربة تُغَيِّر الشخص الذي يقوم بها. هذه التجربة لها خاصية أنّها تُشرك من يشاهدها في خَلقها. إنّها غير مستقلة عن المُشاهد، عكس ما تريد الحقيقة الموضوعية. حسب عبارة ريلكه التي يسردها غادامير فإنّ كلّ عمل فني يقول لمشاهده "عليك أن تُغَيِّر حياتك"، فالشخص الذي عاش فعلاً تجربة اللقاء مع عمل فني يخرج من هذه التجربة مُتَحَوِّلاً، لأنّها تحمله، حسب غادامير، على أن يقرأ عالمه ويقرأ ذاته بشكل مختلف، لدرجة أنّ حقيقة العمل الفني تدعو إلى نوع من التحوّل.

بالإضافة إلى ذلك فهذه الحقيقة التي تُغَيِّر لا تأتي لكي تؤكد يقينياتنا، كما هو الحال في نتائج العلوم، هذه الحقيقة تقلب الحقائق العلمية جاعلة بذلك من يكتشفها في مواجهة مع تناهيه الخاص وضعف علمه. هذه الحقيقة التي تُغير هي حقيقة يطبقها الإنسان على وضعيته الخاصة. إنّها ليست حقيقة خارج الزمان، متشابهة عند الجميع، ولكنها حقيقة تكتسب مكانة خاصة عند الذي يعيش تجربة اكتشافها. غادامير يستحضر في هذا السياق مقولة أوراس "الأمر يتعلق بك في هذه التجربة". إنّ الحقيقة التي تنكشف في اللقاء مع عمل فني تكشف عن ماهية الأشياء، بمعنى الكينونة أو الحقيقة الدائمة للأشياء التي تمكننا من معرفة حقة. كافكا يجعلنا نكتشف غموض العالم المعاصر تماماً كما أنّ فيليب دوشومباني يجعلنا نكتشف من هو ريشوليو في لوحته الشهيرة. كلّ الأعمال الفنية حسب غادامير تجعلنا نكتشف ماهية الأشياء ومعناها على الرغم من أنّ طريقها ليست طريق العلوم الحقة.

كما لاحظ جون غريش ذلك فإنّ غادامير لم يكن يتحدث عن الدين حين كان يسلط الضوء على تلك الحقيقة المختلفة عن العلم الحديث الذي لا يعرف غير الحقيقة الموضوعية لما يمكن ملاحظته وقياسه. ربما لأنّ غادامير لم يعش تجربة شخصية في المعرفة الدينية. لكن حسب غريش فإنّ توصيف غادامير يمكنه أن ينطبق على حقيقة التجربة الدينية[10]، انظر (جان غريش، العليقة المحترقة وأنوار العقل)، ولأنّها تتشابه مع الفن أو العلوم الإنسانية فإنّ الحقيقة الدينية تغير الإنسان الذي يختبرها جذرياً. إنّها إذن حقيقة لا يمكن فصلها عن المُلاحظ، عكس ما هو عليه الحال في العلوم، حيث ذاتية المُلاحظ تسيء إلى المعرفة. الحقيقة الدينية هي أيضاً حقيقة تَقْلب انتظاراتنا وتَرُجّنا رجّاً. إنّها تدعونا هنا إلى التساؤل عن حقائقنا، وتجعلنا نواجه تناهينا الخاص، هذه الحقيقة ليس لها طابع نظري أو إدراكي بالمعنى الضيق للكلمة، إنّها

[10]- انظر جون غريش: "العليقة المشتعلة وأنوار العقل"، ابتكار فلسفة الأديان، سيرف، باريس 2004، ص 139

تقول لنا الحقيقة عن حياتنا في مجملها، وهي تفعل ذلك بكشفها عن أفق جديد في فهم الحياة. بهذا المعنى تنقل الأديان إلينا حقيقة هي مطابقة للتغيير والتحول في كينونتنا. وإذا ما شئنا استعارة عبارة يوحنا (8، 31) فإنّنا نقول بأنّ هذه الحقيقة بالضبط هي التي عليها أن تحررنا. المؤمن يؤمن لأنّ الحقيقة التي يلتقيها تُحرره، الدين بذلك يجسد تجربة في إنتاج الحقيقة ليست هي تجربة العلوم الحديثة نفسها، ولكنها حقيقة تلقنها النصوص المقدّسة التي تدلّ عليها حياة المؤمنين أنفسهم.

السؤال الصعب عن ما هو الدين الحق؟

ولكن سيقول قائل هذا لا يعني أنّ الدين صحيح حسب معايير الموضوعية العلمية. لنقل بشكل أكثر وضوحاً: ليس لأنّني أعتقد أنّ الروح سرمدية فهذا يعني أنّها كذلك. وليس لأنّ رسالة دين ما تعتبر مخلصة فإنّ عقائدها هي بالضرورة صحيحة (مرّة أخرى نحتكم إلى الحقيقة الموضوعية)، فتجربة اكتشاف الحقيقة التي يعيشها المؤمن يمكن أن تكون نابعة من هلوسة أو إيحاء ذاتي. لهذا فإنّ التجربة الدينية لا بدّ أن تكون موضوعاً لتبرير رصين لا يعتمد فقط على نظام الحقيقة الموضوعية، مسألة التبرير هذه تفترض أنّ الاعتقاد ليس عدواً للعقل، بل على العكس، يمكن الدفاع عنه بمنطق العقل. هذه البراهين لن تكون رياضيةً، ولكن لا شيء يؤكد أنّ العقل ليس إلا مسألة حسابات. الأثر الهام للعقل هو أن يعطي لتجاربنا معنًى، وأن يفهم ويستشرف لماذا الأشياء كائنة على ما هي عليه. الحقيقة الدينية هي ضمن هذا المجهود، إنّها تساعدنا على توسيع مفهومنا للعقلانية، بل تعطيها كافة أبعادها.

كيف يمكن تبرير الحقيقة الدينية؟ هذا التبرير يمكن أن يتعلق بشرعية المعتقد الديني بصفة عامة أو حقيقة دين بعينه. تبرير معتقد ديني معين ينخرط في الدفاع عن الدين الحق كما أراده القديس أغسطينوس الذي كان يريد الدفاع عن حقيقة المسيحية. إنّها طريق صارت صعبة في زمن حوار الأديان، حيث نركز على ما يُوحّد لا على ما يُفرّق. إنّه عصر مبارك ومخلص، لأنّه يحرّرنا من الحروب الدينية (نوعاً ما لأنّ الأحداث تؤكد لنا أنّه مازالت هناك حروب) التي تأسست على ادعاءات حصرية بامتلاك الحقيقة. يرى عالم الآثار المصرية جان أسمان (Jan Assmann)، أنّ ادعاء الحقيقة في الأديان الموحدة أو ما سمّاه في كتابه بـ"الاختلاف الموسوي" هذا الادعاء بالحصرية هو منبع التعصب الديني: ليس هناك إلا إله واحد وباقي الآلهة ليست إلا أوثاناً زائفةً يجب محاربتها[11] (انظر جان أسمان، ثمن التوحيد، باريس). وبالرغم من أنّ حضارتنا الغربية نابعة من التوحيد فإنّ الحصرية الدينية في امتلاك الحقيقة تبدو لنا قادمة من عصر آخر. يقع على عاتق كلّ الأديان أن تتعايش بسلام، سواء كانت الإسلام، أو اليهودية،

[11]- انظر جان أسمان، "ثمن التوحيد"، باريس، أوبيي 2007.

أو المسيحية، أو البوذية، أو الهندوسية، وكلّ الأشكال الروحية، ومن ضمنها تجربة الإلحاد المعاصرة[12].
لكن هل يعني هذا أنّ الأديان متساوية؟ في زمن المساواة بين كلّ أشكال التعبير الديني يظلّ سؤال الحقيقة في كلّ دين مطروحاً. لماذا نعتنق ديناً دون آخر؟ هل هي مسألة ولادة وجغرافيا كما يقول روسو؟ ألا يعني حوار الأديان أنّ ادّعاءات الحقيقة ما تزال حاضرة ويجب مناقشتها؟ إذا ما كنا مسلمين أو مسيحيين أو.... فهذا لأنّنا نعتقد أنّ ديننا أصحّ من الآخرين، وأنّه يمكن الدفاع عنه، على الأقل إلى مدى معيّن. هذا المطلب محايث للعديد من الديانات ذاتها التي تطمح إلى تجاوز الأخريات: الإسلام يزعم أنّه يفهم نصوص الإنجيل أحسن من المسيحية واليهودية. المسيحية تتصور ذاتها تجسيدًا للحقيقة في العهد القديم. اليهودية، يهودية موسى، تقدّس إلهاً أكثر صحّة لأنّه أقلّ وثنية من آلهة الديانات التعددية.

يجب على المعتقد الديني أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه، مع الحرص على أن يعتبر نفسه حصرياً: هذا المعتقد يجب أن يكون قادراً على أن يكشف عن تاريخه وعن ينابيعه، وتجربته في إنتاج الحقيقة وثمارها. هذا التفسير يخصّ كلّ الذين ينتمون إلى طائفة دينية معينة، التي هي في الواقع متوارثة، والتي في خضمها تنتعش رؤى روحية مختلفة. طرق الروح متنوعة، ولكنها يجب أن تكون قادرة على الدفاع عن نفسها باعتبارها أشكالاً للحقيقة قادرةً على التحقق بالمعنى الذي أشرنا إليه سابقاً. لنقلْ إنّ كل عقيدة ترفض أن تُلقي الضوء على نفسها، ينابيعها ومصادرها وتصورها للحياة، هي عقيدة تثير شبهات مبررة. الدين هو منبع للضوء، ويجب عليه أن يضيء نفسه أولاً.

السؤال الأكثر عمومية عن حقيقة الاعتقاد الديني

بشكل أكثر عمقاً، يطرح اليوم سؤال الحقيقة في الدين بشكل أكثر حدّة، هل يمكن تبرير السلوك الديني كيفما كان توجهه أم أنّه ليس إلا قضية لا عقلانية؟ إذا كانت القضية تطرح بشيء من الاستعجال فهذا راجع إلى تصاعد الادعاء العلمي بامتلاك الحقيقة، هذا الادعاء ينحو إلى تفضيل التفسيرات المادية المحضة ونفي التفسيرات الخارقة للطبيعة التي تستوجب أشكالاً من الواقع المفارق، والتي لا يمكن التحقق منها على الأقل تبعاً لمعايير الحقيقة الموضوعية. هذا الادعاء بالحصرية الذي يأخذ أشكالاً متعصبة في بعض الأحيان يضع الدين وكلّ الأشكال غير العلمية في موقع الدفاع عن النفس.

كيف يمكن أن ندافع عن الحقيقة الدينية في سياق يعاديها على الأقل في بعض المجتمعات الغربية وبين شرائح معينة من الناس؟ ضرورة تبرير الدين هي إحدى المهام القديمة لفلسفة الأديان التي طورت

[12]- انظر أندري كونت سبونفيل "روح الإلحاد، مقدمة لروحانيات بدون إله"، باريس، ألبان ميشال 2006

براهين في صالح الاعتقاد[13] (انظر جون غريش، العليقة المشتعلة وأنوار العقل). ليس من المؤكد أنّ تفسيرات فلسفة الأديان ستقنع الملحدين الصناديد. مثل هذه البراهين الرياضية لا توجد في نظام قناعاتنا الجوهرية، وهي إحدى النتائج المنحرفة لحصرية الحقيقة الموضوعية التي تجعلنا نؤمن بوجود شيء مثل هذا.

الطريقة الأولى، وهي خارجية لتبرير حقيقة الإيمان، هي أن نذكر أنّ المعتقدات تبقى رائجةً جداً حتى في عصر العلوم المنتصرة، المؤمنون ما زالوا يشكلون الأغلبية في مجمل المجتمعات تقريباً. إنّه برهان ضعيف بدون شك لأنّه يمكن أن تكون الجماعة مخطئة أو على وهم، على الرغم من كلّ شيء إنّه برهان يؤخذ على محمل الجدّ، ويحترم دوافع الذين نسميهم مؤمنين. الإنسان بصفة عامة لا يحب أن يغرّر به، ولا يعطي ثقته إلا للأفكار التي يمكنه معرفة مدى صحتها.

لنترك سؤال حقيقة دين معين جانباً، لأسباب تتعلق بضيق الحيز هنا، ولنتساءل كيف يمكننا اليوم أن نبرر حقيقة الدين بما هو كذلك؟ هناك طريقان تنفتحان أمام العقل: الطريق الأولى تستند إلى براهين ميتافيزيقية، والثانية تستند إلى شهادات المؤمنين الذين ينالون إعجابنا.

يجب ألّا نحتقر البراهين الميتافيزيقية، لأنّ الميتافيزيقا ليست إلا مجهود العقل من أجل فهم مجموع الواقع وأسبابه (انظر دراستنا عن معنى الأشياء، فكرة الميتافيزيقا). هذا المجهود العقلي أسّس لتراث فكري وفلسفي. إنّه يفترض أنّ عقلنا قادر على فهم شيء ما في مجموع تجربته، ويجيب، على سبيل المثال، عن سؤال معرفة لماذا هناك وجود بدل العدم؟ الميتافيزيقا تستمد براهينها من سير الأشياء ومن قدرة عقلنا على فهم معناها، وذلك لكي يفترض أنّ السير العاقل للأشياء هو فعل عقل نُسمّيه الله، هذا هو إله الفلاسفة الذي ليس ربما بإله الأديان، لكنّ الأديان تحتفي طبعاً بإله هو خالق الكون وحكمة نظامه. طبعاً هناك كوارث وفوضى في العالم، ولكن لا نحسّ بهما بهذا الشكل إلا لأنّ النظام والمعنى مفترضان في العالم. هنا البرهان الذي نسميه بالميتافيزيقي لا يمكن التحقق منه بواسطة التجربة المباشرة، بمعنى أنّه لا أحد رأى الله كما تقول ترنيمة يوحنا (4، 12). على الرغم من ذلك تبقى هذه أحسن الفرضيات وإحدى أقواها مشروعية إذا ما أردنا أن نعبر عن السير العاقل للأشياء والذي يمكن أن نراه ونعجب به. كلنا نعرف مقولة آينشتاين "أؤكد أنّ الشعور الديني الكوني هو الدافع الأكثر قوةً والأكثر نبلاً في البحث العلمي (انظر كتابنا فلسفة الدين)، هذه الشهادة ثمينة، ليس فقط لأنّها آتية من واحد من أعظم العلماء، بل لأنّها أيضاً تلمّح إلى إمكانية بناء جسور بين الحقيقة العلمية وحقيقة الأديان. الشيء الأكيد هو أنّ العلم يمكن أن

[13]- انظر جان غريش، العليقة المشتعلة وأنوار العقل، ص 34

ينال إعجابنا أمام نظام الأشياء، ويقودنا إلى التساؤل عمّا إذا كان هناك عقل مُدَبِّر لها، علينا ألا نحتقر هذا البرهان الموالي للحقيقة الدينية، والذي له فضل كونه في متناول المؤمن العادي، هل من الطبيعي أكثر أن نذهب إلى أنّ العالم نشأ نتيجة مصادفة عمياء؟ في الحقيقة هذا الاعتقاد كسول ما دام يتخلى عن شرح عقلانية العالم، ويَنْسب نشأته إلى مصادفة غير معقولة. الميتافيزيقا تقول إنّه من العقلانية والجدية أن نقبل بوجود عقل مُدبِّر كفيل بشرح عقلانية العالم.

البراهين الأخرى في صالح الحقيقة الدينية نابعة أساساً من الشهادات. المؤمنون يزدادون رسوخاً في إيمانهم بفضل شهادات شخصيات نموذجية، من قديسين، وشهداء وناطقين باسم الأديان من الذين تُلهمهم تجربتهم في الإيمان والالتزام (انظر شارل تايلور، العهد العلماني). التصديق بهذه الشخصيات النموذجية له أثر العدوى. بالنسبة إلى شارل تايلور فإنّ تلك الشهادات لها وزن أكبر من البراهين الميتافيزيقية (انظر دراستنا: هل شارل تايلور له أسبابه؟) كيف يمكن تفسير قوة القناعة والالتزام عند الرسل وكبار المُبشّرين، والشهداء والذين شهدوا بأعمالهم، وتضحياتهم وإخلاصهم في العقيدة؟ هذه الشهادات مُؤسِّسة، وتُغير الإنسان أيضاً، ولكنها لا تنسى أنّ التحول والإيمان يظلان أمورًا ميتافيزيقية، باعتبارها تؤمن بسببية أو تدخل إلهي في نظام العالم والأشياء الإنسانية. لهذا حينما نتحدث عن الإيمان لا يمكننا ألا نعرّج على الميتافيزيقا وعلى تصورها للألوهية.

الحقيقة الكبرى التي تُنتجها الأديان هي أنّها تُعَلِّمنا أنّنا نعيش في عالم له معنًى، وأنّ التجربة الإنسانية، على الرغم من صعوباتها، وأشكال الظلم التي تطبعها وتراجيدياتها التي تتحدث عنها كلّ الأديان، هذه التجربة الإنسانية لها معنى. الحقيقة الثانية هي أنّها تعلمنا أنّ هذا المعنى ليس من إنتاجنا: إنّه يسبقنا، ويمكنه أن يقودنا، إنّها حقيقة يصعب أن نصدقها في عالم نميل فيه إلى الاعتقاد أنّ الحقيقة صادرة عن الفرد. هذا المفهوم التركيبي للحقيقة هو في جوهره متناقض مادام كلّ فرد يحدّد ما هو الصحيح. من البدهي أنّه لم تعد هناك حقائق، بل هناك آراء فقط. الدين يمنح بُعداً آخر للحقيقة ويعرضها أمام عقولنا، إنّها حَقيقةُ معنى يسبقنا ويحملنا على جناحيه، ويمكننا أن نطبقه.

Jean Grondin: La religion comme expérience de vérité, Revue cités n62.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com
www.mominoun.com